

## جلال الدين السيوطي المؤرخ والعالم والفقيه

٧٢

فى الفكر الإسلامى لم يكد يمضى على الرسالة الدينية الجديدة قرن من الزمان حتى نشطت حركة التجميع لأطراف المعارف، ومعها حركة التقنين العلمى، وكان ذلك ملحوظاً فى علوم اللغة، وفى الفقه، ثم نقل ثقافات الآخرين. حتى إذا جاء القرن العاشر وامتداده فى القرن الحادى عشر (الرابع الهجرى وامتداده فى الخامس الهجرى) بلغ التنوير ذروته، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة دائرة المعارف التى هى عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات.

ومن هنا يمكن القول بأن الثقافة العربية الإسلامية كانت رائدة فى هذا المجال الموسوعى، مما يميزها عن غيرها من الثقافات العالمية بعد ذلك، ويجعلها سابقة عليها.

وهذه الحركة الموسوعية كانت تنشط تبعاً للظروف التى تمر بها هذه الثقافة، سواء كانت هذه الظروف طيبة أو غير ذلك.

ولعل هذه الحركة الموسوعية فى الثقافة العربية الإسلامية كانت تنشط إذا ما مر بالعالم الإسلامى محنة من المحن التى يُمتحن بها، وهنا يهرع المؤلفون إلى جمع المعارف التى حصلها السابقون حتى يستفيد منها اللاحقون. وقد حدث هذا حين كانت محنة المسلمين فى الأندلس فى أواخر القرن الثامن الهجرى بسنوات قليلة، وبالتحديد فى سنة سبع وتسعين وثمانمائة، يوم أن خرج المسلمون من أسبانيا، وانقطعت عن العرب كل السبل إلى وصلٍ تقدمهم، أو الاستمرار فيما بدءوا.

وقد سبق محنة سقوط غرناطة العربية فى الأندلس، وزوال السيادة العربية فى

الغرب محنة أخرى فى الشرق، حين سقطت بغداد فى أيدي المغول سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ) وانتهت بدخول العثمانيين سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (٩٢٣ هـ). وهذه الفترة التى امتدت إلى ما يقرب من ثلاثة قرون سميت بالعصر المغولى، وذلك بسيادة المغول للرقعة العربية من حدود الهند شرقاً إلى حدود سوريا غرباً.

وكما بطش المغول بالمسلمين فى الشرق بطش الأسبان بهم فى الغرب، ومن ضمن ما صنعوا إحراقهم المكتبات العربية، وإتيانهم على الكتب... ونفس الأمر فعله الأسبان فى الغرب، حيث أحرقوا وأبادوا عشرات الآلاف من الكتب العربية، والتاريخ يذكر ما فعله الكاردينال «زيمتسى» فى آخر القرن التاسع بمكتبة غرناطة حين حرم الوجود الثقافى نحو ثمانين ألف مجلد.

وبسبب هذا العسف الذى لحق المسلمين فى الشرق العربى على أيدي المغول فى بغداد، والغرب الأندلسى على أيدي الأسبان فى غرناطة، هاجرت الجموع من الغرب والشرق إلى مصر، التى لم تكن قد امتدت إليها محنة الغرب الأسبانى أو الشرق المغولى، فهاجر إليها العلماء، حيث لا أسبان ولا مغول، وكان من بين هؤلاء عدد من المؤرخين فى مصر والشام، عرفتهم الثقافة العربية الإسلامية، نذكر منهم ابن خلكان (٦٨١ هـ) صاحب وفيات الأعيان، وابن أبى أصيبعة، (٦٦٨ هـ) صاحب طبقات الأطباء، وصلاح الدين الصفدى (٧٦٤ هـ) صاحب الوافى بالوفيات، وأبا الفدا (٧٣٢ هـ) صاحب المختصر فى أخبار البشر، والذهبى (٧٤٨ هـ) صاحب تاريخ الإسلام، وابن شاکر الكتبى (٧٥٤ هـ) صاحب كتاب فوات الوفيات، وابن حجر العسقلانى (٨٥٢ هـ) صاحب الدرر الكامنة، والمقريزى (٨٤٥ هـ) صاحب الخطط، وغيرهم.

كما ظهرت نتيجة أخرى لهذه المحنة التى ألت بالعالم العربى - غربه وشرقه - بدت فى لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعى، حتى أصبح هذا العصر يسمى بعصر الموسوعات أو عصر المجاميع. حيث خاف العلماء على اللغة والأدب من الضياع، فاستكثروا من المعاجم، ولا عجب فى ذلك، حيث أحس الناس وقتئذ - بانطواء صفحات، وزوال معالم، وذهاب تاريخ فيما بين عشية وضحاها.

ومن أصحاب هذه الموسوعات والمجاميع والمعاجم: ابن منظور (٧١١ هـ) صاحب لسان العرب، والوطواط (٧١٨ هـ) صاحب نهاية الأرب، وابن فضل الله العمري (٧٤٨ هـ) صاحب مسالك الأبصار، والفيروزا بادى (٨١٧ هـ) صاحب القاموس المحيط، والقلقشندي (٨٢١ هـ) صاحب موسوعة صُبح الأعي.

وفى ظل هذه المحنة التي شملت العالم العربي شرقه وغربه، وتلك اللهفة الحافزة لجمع المعارف والمعلومات، وتلك الغيرة الشديدة على تسجيل الأحداث وتحليلها - نشأ المؤرخ والعالم والفقير جلال الدين السيوطي (٨٤٩ هـ) وعاش ومات، وأرخ لنفسه قائلاً: «... وأما جدي الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومشايخ الطرق الصوفية.. وقد بنى مدرسة بأسبوط وأوقف عليها أوقافاً وكان مولدى - بالقاهرة - بعد المغرب ليلة الأحد، مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وحملت في حياة أبي إلى الشيخ محمد المجذوب، وكان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسى بالقاهرة... ونشأت يتيماً، فحفظت القرآن ولى من العمر دون ثمانى سنوات. ثم حفظت العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك. وشرعت فى الاشتغال بالعلم من مستهل سنة ٨٦٤ هـ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ، وأخذت الفرائض عن علامة زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحى، الذى يقال إنه بلغ السن العالية، وجاوز المائة بكثير.. وأجزتُ بتدريس العربية فى مستهل سنة ٨٦٦ هـ، وألفت فى هذه السنة. وكان أول شئ ألفته شرح الاستعاذة والبسملة، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقينى، فكتب عليه تقریظاً. ولازمته فى الفقه إلى أن مات، وأجزت بالتدريس والإفتاء من سنة ٨٧٦ هـ...»

ثم لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوى، فقرأت عليه قطعة من المنهاج، وسمعت عليه فى التقسيم، وسمعت دروساً من شرح البهجة وحاشية عليها من تفسير البيضاوى.

ولزمت فى الحديث والعربية، شيخنا الإمام العلامة تقي الدين الشبلى الحنفى، فواظبته أربع سنين، وكتب لى تقریظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع فى العربية، وكان من تأليفى، وشهد لى غير مرة بالتقدم فى العلوم بلسانه

وبنائه . ورجع إلى قولي مجرداً في حديث، فإنه أورد في حاشيته على الشفاء حديث ابن أبي الجرماء في الإسراء . وعزاه إلى تخريج ابن ماجه، فاحتجت إلى إيراده بسنده، فكشفت ابن ماجه في مظنته فلم أجده، فمررت على الكتاب - ثلاث مرات - فلم أجده، ورأيت في معجم الصحابة لابن قانع، فجئت إلى الشيخ وأخبرته، فبمجرد ما سمع مني ذلك أخذ نسخه، وأخذ القلم، فضرب على لفظ ابن ماجه، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي واحتقاري في نفسي . . .

ولزمت شيخنا العلامة محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول العربية والمعاني وغير ذلك، وكتب لى إجازة عظيمة . وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفي دروساً عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه، وتلخيص المفتاح والعضد .

وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين وثمانمائة، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب، سوى ما غسلته ورجعت عنه .

وسافرت بحمد الله إلى بلاد الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمر، منها: أن أصل في الفقه إلى مرتبة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين، ورزفت التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع على طريقة البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . . . والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة - سوى الفقه والنقول - التي أطلعت عليها فيها - لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد شياخي، فضلاً عنّ دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شياخي فيه أوسع نظراً وأطول باعاً. ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه، والجدل، والتصريف. ودونها الإنشاء والتوسل والفرائض، ودونها القراءات، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطب، وأما علم الحساب فهو أعسر شيء على، وأبعده من ذهني . . .

وقد كملت عندي الآن آلات الجهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك محدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً.

وقد أذف الرحيل، وبدأ الشيب، وذهب أطيب العمر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية القياسية ومداركها، ونقوضها، وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها. . لقدرت على ذلك من فضل، لا بحولى ولا بقوتى. . . .

وقد كنت في مبادئ الطلب قد قرأت شيئاً في علم المنطق، ثم ألقى الله كراهيته في قلبي، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته. . فعوضني الله عنه علم الحديث، الذي هو أشرف العلوم وأما مشايخي في الرواية سمعاً وإجازة فكثيرون. . عددتهم نحو مائة وخمسين. . وهذه أسماء مصنفاتي. . . .». وبدأ في تصنيف كتبه.

وقد أحصى بروكلمان نحو خمسة عشر وأربعمائة مؤلف.

كما أحصى له حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون نحو ستة وسبعين وخمسمائة كتاب، ومن قبل أحصى له ابن إياس في تاريخه بأن كتبه بلغت الستمائة، وأحصى له الشعراني في ذيل طبقاته أربعمائة وستين مؤلفاً.

ويعلق الأستاذ أحمد الأبياري على كثرة مؤلفات السيوطي قائلاً: إذا عرفنا هذا نكاد نفهم كيف اتسعت الأعوام الخمسة والأربعين التي عكف فيها السيوطي على العبادة والتأليف. . لهذا العدد من الكتب فهو قد بدأ التأليف - كما يقول في ترجمته لنفسه - عام ٨٦٦ هـ، وكانت وفاته عام ٩١١ هـ. . فإننا لا نستكثرها عليه. .

وقد عاش السيوطي عظيماً، يعف عمّاً في يد الأمراء والوزراء وسعى إليه هؤلاء الأمراء والوزراء. وعز في أنفسهم حين عز في نفسه.

وحسبك عنه أنه لما مات عام ٩١١ لم يتعرض أحد لتركته، مع أن زمانه كان زمن جور، وإليك ما قاله جمال الدين الشبلي في كتابه «السنا الباهر بتكميل النور السافر»: «دفن جلال الدين السيوطي في قبر والده، وعمل له الأمير قرقماش. .

صندوقاً من خشب، وستراً أسود مطرزاً بالأبيض بأية الكرسي، وصار ضريحه مقصوداً بالزيارة للتبرك».

ويقول الشعراني في ذيل طبقاته ولما جئت إلى مصر قبيل موت السيوطي اجتمعت به مرة واحدة تبركاً، ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعى موته. إلى أن يقول: «مات جلال الدين السيوطي رضى الله عنه في ليلة الجمعة عام ٩١١. وكان له مشهد عظيم».

وقد حقق العلامة أحمد تيمور مكان قبره في كتيب صغير بعنوان قبر الإمام السيوطي، وتحقيق موضعه، فأنتهى إلى أنه في المكان المعروف عند العامة بيوابة السيدة عائشة. حيث يقول: «وقبره مشهور عند أهل هذه الناحية، الخلف عن السلف؟ من زمن وفاته إلى اليوم، ويرجع الفضل في حفظه إلى حسن اعتقاد الناس فيه، وقصدهم إياه بالزيارة كل حين، ويطعمون له مولداً كل سنة في نصف شعبان».

وفي مدينة أسيوط مسجد يُعرف بجامع سيدي جلال الدين السيوطي، وبه ضريح تزعم العامة جهلاً أنه ضريح السيوطي، ولم يُعرف سبب نسبة هذا المسجد إلى السيوطي ويقول أحمد تيمور: والذي يسبق إلى الظن أنه المدرسة التي ذكرها السيوطي بكتابه «حسن المحاضرة». . تلك التي بناها أجداده بأسيوط.

\*\*\*